

مشروع الدولة الوطنية الحديثة

"من خلال رمزية المبايعة ودلالات المعاهدات والاتفاقيات"

أ. تيزي ميلود أستاذ مساعد جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس

من يقرأ التاريخ العربي الإسلامي والثورات العربية يكتشف أن الدين كان ثورة وأسلوباً تحريراً منذ عهد الخلفاء الراشدين وتطور على الوجود الغربي المسيحي في البلاد العربية مع مطلع القرن 20. إن مشروع الدولة عند الأمير عبد القادر كان كذلك بمثابة تحول فكري جديد يستمد روحه من أن الدين الإسلامي يحمل نظاماً سياسياً واقتصادياً وحضارياً يؤسس لخلافة جديدة وليست تقليدية أصبحت عند الغربيين تعرف بفصل الدين عن الدولة أي أنها تقوم على الدين وتفصل ما بين السلطات وليس كما هو شائع أن الخلافة سلطة دينية. (1)

وبناءً على ذلك انتبه المفكرون الغربيون إلى فكر الأمير وأنصب اهتمامهم بموروثه وثقافته وأخلاقه وفترة مقاومته أكثر مما أثار اهتمام الباحثين الجزائريين أو العرب. فهل كانت مبايعة الأمير إجراءً من إجراءات أنظمة الحكم حالياً؟

أو هل كان الأمير نبوغاً سياسياً بالموازاة مع قناعاته العقائدية وتربيته الدينية؟ ولماذا لا نقرأ عن الأمير ما يتجاوز شخصيته وعائلته وثورته إلى أفكاره وأفعاله وكتاباتاته؟ لقد وصف أحد الباحثين الألمان (2) لقاءً جمعه بالأمير بعد معاهدة تافنة 1837 "بأنه كان متفتحاً مسالماً، لم يكن يرى ما يحول بينه وبين الفرنسيين أن يتحدث معهم في كل شيء".

المعروف أن آخر مراحل حكم الدايات العثمانيين لم تكن مستقرة وأغلبهم انتهوا نهاية دموية ولم يكن بوسعهم الخروج دون حراسة، بينما الأمير عبد القادر وهو في حرب مع المحتل الفرنسي استطاع أن يخرس المحبة بين القبائل ويبعد التعصب والتشدد وينشر العدل وهذه صفات العظماء والذين يحملون مشروعاً حضارياً أساسه بناء المجتمع وليس تفكيكه حتى في أحلك أيامه وهزيمته وانفصال عدة قبائل عن مقاومته.

إن هذا الجانب هو الذي أزعج جنرالات فرنسا وبعض الملوك الفرنسيين الذين كانوا يحملون النزعة الاستعمارية إبان القرنين 18 و 19. لأن الأمير نجح في توحيد البلاد التي كانت تعاني من الانفصال والتشتت في آخر أيام الحكم العثماني، وجمع شمل القبائل (3) فأسس نظاماً مركزياً جديداً يقوم على إلغاء العصبية القبلية وتنظيم الولاء للزعامة الدينية (4) ثم أنشأ جيشاً نظامياً شعبياً على شاكلة لجيوش الأوروبية.

ومن هنا نستنتج مشروع الدولة الوطنية الحديثة التي ورع نواتها الأمير رغم إعلان المحمل (1847-1832).

لقد حملت معادتين دي ميشال 26 فبراير 1834 و الثانية 30 ماي 1837 مع الاحتلال الفرنسي لدلالات الدولة الجزائرية الحديثة التي أسسها الأمير وهو بآية هذه القوة الاستعمارية. فقد تناولت بنود الاعتراف بالدولة و اعتراف فرنسا بسلطته عليها و إقامة علاقات دبلوماسية مع عدة دول في حوض البحر المتوسط كما جسدت الإتفاقيات التجارية مع بريطانيا و الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الناشئة آنذاك (جريدة The strated london) أصدرت مقالا عام 1842 عن هذه الإتفاقيات مرفوقا بتعليق عن الأميرة عبد القادر و الإعلان عن تسمية بلدة صغيرة في أمريكا (ولاية IOWA) باسم EL KADER منذ 1846 (5) انتصاراً سياسياً آخر.

كان الأمير عبد القادر حسب الكثير من الباحثين في هذا المجال سابقاً لعصره في إقامة هذا النظام و نحاحه في جعل الجزائر كيانياً سياسياً مستقلاً عن فكرة الإمارة العثمانية و جزء لا يتجزأ من أملاك الرجل المريض (الدول العثمانية في زمن انحطاطها) التي حولها مصطفى كمال أتاتورك إلى حكم غربي. كما اختلف عن النموذج المصري في عهد الملك فؤاد الذي أثارت أطماعه في بقايا الخلافة العثمانية في مصر شهية ، بينما الأمير عبد القادر في الجزائر أحدث القطعية مع هذا النظام التقليدي و اقام نظاماً حديثاً

في الجزائر خارج عباءة الخلافة و الإسلامية لأن الخلافة العثمانية كانت تعتبر الدين نظاما سياسيا محبرا أساس الفتوحات.

لازال فكر الأمير يستهوي الكثير من دار النشر العربية و الغربية و لازالت عبقريته منهاجا سياسيا و فكريا يتداوله المفكرون في كل المناسبات المتعلقة بتعايش الدينيات و دراسة حياة العظماء و الشخصيات فكتبوا عن معالجته فتنة النصاري و المسلمين في دمشق عام 1860 و دعوته لإحترام الإنسان دون النظر لدينه أو عرقه أو لونه هذه الدعوة هي اليوم وثيقة من الوثائق.

فكان محل إعجاب قناصلة أمريكا و بريطانيا و روسيا و فرنسا و اليونان خلال تلم الحادثة. لقد جسدت فكرة البيعة رمزية الاستشارة كذلك في المجال السياسي و نظام الانتخاب و الميثاق حسب الدراسات الانثروولوجية و الفلسفية و الدستورية.

لم يسلم الأمير عبد القادر من الفرنسي و نقض للعودة الى الحرب عليها فأثار ذلك غضب الكثير من دول العالم ، وقد اتمر عدها إعتبار وقف الحرب (6) مع الجنرال لأمر سيار بسبب غدر السلطان المغربي إستسلاما و بدل أن يؤخذ إلى سوريا منذ 1847 حول الى سجن تولون بفرنسا.

إن من واجب الباحثين و الأكاديمين أن يولوا إهتمامهم إلى هذه النقاط تصحيح المغالطات التاريخية الواردة في حق هذا الرجل الذي كان مسؤولا متقفا في زمن غير زمنه رفض ان يكون ملكا أو إمبراطورا و أقيمت له البرتكولات و وجهت له دعوة تدشين قناة السويس في نوفمبر 1869 كما نشير في هذا المقام أن الأمير أثناء فترة مقاومته عرف معارضة اتباع الطريقة النيجانية (7) و لو أن هذه العلاقة بينه و بينهم تشويها الكثير من الاستفهامات إلا أن يبررون ذلك الى المادتين السادسة و السابعة التي اعتبروها خيانة للشعب و القضية.

بينما في الحقيقة أن الخليفة التيجاني لم يخرج عن طاعة الأمير بل كان الأمر عبارة عن وشاية توصل الباحثون إلى رسالة (8) في وثائق ومخطوطات الخلافة العامة تضمنت تراجع الأمير عن حصرها وعن فكرة عدائها بعد أن تأكد من أخبار هذه المنطقة كانت تأتيه من خليفته الحاج العربي الذي كان ينتمي إلى قبائل الشراقة المتصارعة مع قبائل الغرابة الموالين للطريقة التيجانية.

ما زالت هناك الكثير من القضايا المرتبطة بحياة مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ومدى مساهمته في تاريخ الحضارة الإنسانية والعالمية فهو من مؤسسي النهضة العربية الأوائل بفكره وخصاله وانجازاته ودلالة معاملاته، قبل جمال الدين الأفغاني (1838 - 1897) ومحمد عبده (1849 - 1905) وغيرهم وأن اختياره لبلاد الشام كمنفى أخير في هذه الفترة حسب رأينا كان صائبا فالمنطقة مع أواخر القرن 19 ومطلع القرن 20 شهدت نهضة فكرية عصرية جمعت ما بين ما هو سياسي وديني وبين ما هو مسلم ومسيحي وما بين الشرق والغرب فكانت مقاومته للفرنسيين بالقلم والسلاح فرق بين السلطة السياسية والسلطة العسكرية وهذا ما يفسر بتأسيسه لدار الحكمة (1837 - 1840) التي جمع فيها الكثير من المخطوطات (9) التي وإن درست ونوقشت وعرضت على الباحثين فسوف تبعد عنه اليوم كتابات لا تصفه سوى بذلك الصوفي أو الفارس، أو الزعيم الديني.(10)

وأخيرا لا يمكن أن أنهي هذا المقال إلا بما جاء على لسان حفيده الأمير عبد القادر "بديعة الحسني" الباحثة والمختصة في التاريخ في لقاء مع الخبر يوم 23 مارس 2009 وأنه يجب على الدولة تصحيح ما كتب في المناهج المدرسية عن الأمير.

الهوامش :

(1) أ.ف. دينيزن : ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر، دار هومة الجزائر 2003 ص 43.

(2) عبد العزيز بوباكير (مشاهير في الجزائر) : Horitz Wagner عالم ألماني مشتكشف قضى ثلاث سنوات في الجزائر (1836 - 1839) له كتاب من ثلاثة أجزاء تحت عنوان (رحلات إلى ولاية الجزائر).

(3) أقصد أمثال الحسن بن عزوز ومحمد الصغير بن عبد الرحمن ومحمد الحساوي بن بلقاسم شيخ الحناشنة وعلي سالم الورقلي وابراهيم بن عون.

- انظر جريدة الجمهورية ليوم 08 فبراير 2008 بحث منشور للأستاذ بن داهه عدة (جامعة معسكر) تحت عنوان الزعامة العالمية.

(4) عبد الحميد زوزو : مراسلات الأمير عبد القادر مع الجنرال دي مشال دار هومة 2009 ص 153.

- (5) محمد الهادي الحسني : الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال نصوص معاصرة عالم الأفكار الجزائر 2006 ص 68.
- (6) ودان بوغوفالة "الثورة الفرنسية في الأسطوغرافيا المغربية" دراسة تاريخية تحليلية في نماذج كتابات ق 19. مكتبة الرشاد 2004، ص 45.
- (7) الخبر الأسبوعي العدد 545 من 5 إلى 11 أوت 2009 (تحقيق حول الزاوية التجانية من إعداد حفناوي بن عامر غول).
- (8) نفس العدد من الخبر الأسبوعي : مقال تحت عنوان ملتقى الإخوان التيجانيين والصراع مع المملكة.
- (9) الشروق اليومي 03 ديسمبر 2010 العدد 3132 أمين الزاوي (شخصيات أدبية).
- (10) الخبر اليومي 02 ماي 2010 العدد 5348 "الملتقى الدولي" رمزية مبايعة الأمير عبد القادر، مؤسسة الأمير عبد القادر نادي الجيش بني مسوس.